جامعة عبد الرحمن مبرة بجابة

محضرات مقياس أدب عصر الضعف

ماستر1، مج 1

الأستاذة نسارك

المحاضرة الأولى: الظروف السياسية والاجتماعية لعصر الضعف

يمتد عصر الضعف والانحطاط على مدى خمسة قرون من سنة 656هـ الموافق لـ 1258م تاريخ سقوط بغداد حتى سنة 1213 هـ الموافق 1798م تاريخ حملة نابليون على مصر ذلك ما توافق عليه النقاد ودارسو الأدب، فما هي أسباب سقوط بغداد؟

أسباب سقوط بغداد كثيرة تراكمت عبر مئات السنين، من أهمها:

1- سوء العلاقة بين الخلافة والرعية؛ فقد كانت الخلافة تعيش لاهية في ترف وبذخ وتبذير، بعيدا عن الدين وحدود الشريعة وأحكامها، في الوقت الذي كانت فيه الرعية تعاني مشقة الفقر والحاجة، وترزح تحت عبْء الضرائب والإتاوات، وعناء الاستبداد؛ والتسلط والظلم، ممّا أدى إلى كراهية العامة لأولي أمورها، وانعدام الولاء للسلطة المركزية في بغداد، وامتداداتها في الأقاليم.

2- فساد وضعف الخليفة المتعصم بالله ومحيطه ، وافتقاره للهيبة، مما نتج عنه استخفاف وزيره مؤيد الدين العلقمي به ، زيادة على الخلاف الذي كان بين وزير الخليفة وقائد الجيش الدويدار الصغير. واختلاف قائد الجيش مع أتباعه الذين شقوا عليه عصا الطاعة فأصبح كل جندي قائد نفسه.

3- عدم الاستعداد المطلوب لمواجهة التتار بالإنفاق على إعداد الجيش وتدريبه وتسليحه، بل أنقص الخليفة من مرتبات الجنود وسرح الكثير منهم لتوفير مزيد من المال وإنفاقه على الملذات ، ومجالس اللهو والمجون.

4- ضعف السلطة المركزية في بغداد أدى إلى انفصال الأقاليم والإمارات عنها وزاد في شدة الصراعات الطائفية بين السنة والشيعة. وخاصة في العراق.

5- تركيبة الجيش الذي كان في معظمه عبارة عن مرتزقة (مماليك) ، والذين انصرفوا عن القتال ، بل انظم الكثير منهم إلى الجيش المغولي ، وأطلعوه على أسرار الجيش العباسي وأحواله المادية والمعنوية السيئة.

وينقسم عصر الضعف والانحطاط إلى فترتين:

1- الفترة الأولى : وعرفت لدى مؤرخي الأدب بعدة أسماء منها ، عصر المماليك ، وعصر الدويلات ، وعصر الحروب الصليبية ، والعصر المغولي ، ويمتد عبر حقبة زمنية تبدأ من عام 656هـ الموافق 1258م إلى سنة 923هـ الموافق1517م تاريخ استيلاء سليم الفاتح على مصر؛ وأكثر المصطلحات ملاءمة هو مصطلح " عصر الضعف ".

أولا:عصر الضعف (250 من عام 656هـ الموافق 1258م إلى سنة 923هـ الموافق1517م).

1-1 الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في عصر الضعف:

وضع المغول أيديهم على دار الخلافة العباسية في بغداد 1258م/ 656هـ، وألحقوا الدمار والخراب بكل ما وقعت عليه أيديهم فيها، فعبثوا بالدماء ، والأعراض والأموال، وخربوا التراث الفكري والعلمي، وفي مقدمتها مكتبة "دار الحكمة " وباقي المكتبات، وهدّموا ما صادفهم من عمران ومعالم حضارية، ونشروا الرّعب والفزع والهلع في كل مكان، فهام كل بغدادي على وجهه يتلو قوله تعالى "يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا" ؛ ومن بغداد توجه التتار صوب الشام فاكتسحوا حلب؛ ودمشق ومدن فلسطين التي أصابها منهم ما أصاب بغداد.

ومن حسن الحظ أنه وقبيل أن يجتاح المغول بغداد كان المماليك قد أقاموا دولة لهم في مصر، وبسطوا سيطرتهم على الشام والحجاز، وهم الذين تصدوا للمغول في طريقهم إلى مصر سنة 658هـ الموافق لـ 1260 ، وبفضل بسالة جيوشهم وبقيادة السلطان المملوكي سيف الدين قطز؛ وقائد جيشه الظاهر

بيبرس، تلقى التتار هزيمة ساحقة نكراء في معركة "عين جالوت " ، جعلتهم يتراجعون مدحورين نحو آسيا الوسطى ولكن دون أن ينهي ذلك تهديدهم الذي استمر حتى وفاة تيمورلنك سنة 1404م .

1-2 هجر الكثير من العلماء والأدباء وطلاب العلم بغداد، وحلب، ودمشق وباقي المدن العباسية المدمرة نحو الأقاليم العربية والإسلامية التي استعصت على الغزاة ؛ وسَلِمَتْ مِنْ بطشِ المغول والصليبين وفي مقدمتها ؛ الشام ؛ والحجاز؛ ومصر والتي وجد بها الفارون والمهاجرون ملاجئ تأويهم تحت حكم المماليك بالرغم مما كان بين هؤلاء من فتن ومنازعات تضر بالاستقرار وبالأمن والسلم الاجتماعي ومعايش الناس .

1-3 أما في المغرب العربي فكانت بداية الهجمات الصليبية متزامنة مع سقوط مدينة طليطلة سنة 478هـ الموافق لـ 1086م ، وتعززت أكثر حين دعا البابا أوربان المسيحيين إلى مساندة الأسبان في حروبهم ضد المسلمين سنة 481هـ الموافق لـ1089م ؛ وحرم على الأسبان مشاركة غيرهم من الأوربيين في الحملات الصليبية على المشرق بقيادة الكنيسة .

وفي المقابل كلفهم بمهمة دحر المسلمين وطردهم من الأندلس؛ وكذلك كان الحال؛ فبدت "الصلة وثيقة بين الحروب الصليبية العامة التي كانت تهدف إلى استعمار بيت المقدس؛ والمدن المقدسة في فلسطين ، وبين الحروب الصليبية بالمغرب التي كانت تهدف إلى استرجاع اسبانيا إلى حظيرة النصرانية من جهة؛ وإلى محاربة الإسلام؛ ومحاولة القضاء عليه من جهة أخرى. وتمكن الصليبيون في الغرب من إحراز النصر الذي عجزوا عن تحقيقه في المشرق؛ وخاصة بعد سقوط دولة الموحدين سنة668هـ الموافق 1269م وهو الحدث الذي أغرى الصليبين وشجعهم أكثر وحفزهم على حشد كل ما يمكنهم من قوى وموارد لطرد العرب والمسلمين من الأندلس وبصفة نهائية وقد تحقق لهم ذلك في الثاني من شهر ربيع الأول، لسنة 897 هـ الموافق 2 من يناير سنة 1492 م ؛ولم تأت سنة 1520 حتى كان كل الساحل الغربي للمغرب الأقصى خاضعا لحكم البرتغاليين.

1-4 استنزف الاجتياح المغولي المتوحش ، والتصدي للحملات الصليبية المتتالية والطويلة في الشرق والغرب قدرات الناس؛ وأنهك مواردهم، وأضيف ذلك كله إلى أعباء الخلافات والمنازعات والحروب؛ والاضطرابات المحلية التي كانت سائدة ومستمرة بين سلاطين وأمراء الأقاليم المتنافرة المتناحرة حتى بين

المماليك أنفسهم داخل مصر ذاتها، فلم تتحسن أوضاع الناس بعد انكفاء المغول يجرون أذيال الهزيمة ؛ واندحار الصليبيين على يد صلاح الدين الأيوبي، بل راح تدهور الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والأدبية يزداد سوءا، يوما بعد يوم؛ وعاما بعد عام، فتعاظمت الكوارث الطبيعة من فيضانات وسيول غامرة جارفة، تتلوها فترات قحط وجفاف مدمّرة، وانتشرت الأوبئة وعلى رأسها الطاعون، وقلّت المكاسب وفحش الغلاء؛ فعم الفقر والفاقة، وتوسّعت الفجوة بين الطبقات، وطالت المظالم جماهير العامة، و كثرت الخلافات والحركات الهدامة وما يتبع ذلك كله من انتشار الأوهام والبدع ومن نشوب المنازعات .

أما في المغرب فيبدأ عصر الضعف بسقوط دولة الموحدين سنة 1269م – والتي خلفتها دويلات ضعيفة وهي الدولة الحفصية ؛ والزيانية ؛ والمرينية . بدأت وجودها متدافعة متصارعة متقاتلة فيما بينها وأنهته كذلك . ومع مطلع القرن السادس عشر الميلادي استغل الأسبان انهيار حكم الزيانيين في تلمسان ؛ ووهن الدولة الحفصية بتونس فاستولوا بقيادة فرديناد على معظم الثغور والمدن الساحلية المهمة في المغرب والجزائر وتونس بين سنوات 910هـ/1505م و917هـ/1511م واستمرت سيطرتهم عليها حتى سنة 1516م حيث استعاد خير الدين وبابا عروج الجزائر العاصمة من الأسبان وجعلاها قاعدة لنشاطهما وجهادهما، ومدافعة عن التدخل الأسباني والأوروبي في غرب البحر المتوسط.

1 –2الفترة الثانية : فترة حكم الأتراك العثمانيين مشرقا ومغربا، وتبدأ من سنة 923هـ الموافق1517م، تاريخ حملة سليم الفاتح على الشام إلى سنة 1212هـ الموافق لـ 1798م تاريخ حملة نابليون بونابرت على مصر وهو ما يعرف بـ "عصر الانحطاط" . وسنعرض فيما يلي لكل فتة على حدة.

2–2الحياة الفكرية والثقافية والأدبية في عصر الضعف(عصر المماليك)

في هذا العصر تميزت الحياة الفكرية والثقافية والأدبية بمجموعة من الخصائص والمميزات يمكن إجمالها فيما يلي:

أ– بشكل عام اتصفت الفترة الأولى من عصر الضعف باحترام المماليك للغة العربية، التي حفظوا لها مكانتها؛ وصانوا هيبتها من خلال اتخاذها" لغة رسمية في دواوين الدولة...وعلى رأسها ديوان الإنشاء... الذي كان يختار للعمل فيه أبرع أهل اللغة والأدب والكتابة. ونفس الفضل يعترف لهم به إزاء العلماء؛ ورجال الدين الوافدين من بغداد، والبصرة؛ وحلب وغيرها "وتعظيمهم ورعايتهم، ومشاورتهم في أمورهم

العليا، واختيار أَصْلَحَهم لولاية القضاء والتعليم ونحوهما. وقد كان ذلك سببا في رواج العربية، وفي رواج الفصحى داخل الدواوين، وبخاصة في كتابة المراسلات والوثائق العليا، وسببا في ظهور طبقات ممتازة من رجال اللغة والأدب والإنشاء، وهذا أعطى أفضلية للنثر والناثرين على الشعر والشعراء، وخاصة في الكتابة الديوانية ،والتدوين.

وفي ما يتعلق بمجال العلم والأدب والثقافة في المغرب العربي؛ فإن الكتب تذكر أن الحفصيين بتونس، والزيانيين بتلمسان والمرينيين بالمغرب أسّسوا بعض المدارس، والّتي كان ينفق عليها في الغالب من مداخيل أملاك وقفية تابعة لها تبرع بها أهل البر والإحسان ، ولكن لم تكن من حيث الكثرة والمستوى على قدر حاجة المجتمع، وأن الذي سدّ العجز وغطى الحاجة هي الزوايا التي بدأت تتكاثر مع بداية القرن الثامن الهجري، يؤمها طلاب العلم من كل حدب وصوب، ومن مختلف طبقات وأعراق المجتمع؛ وازداد نموّها وانتشارها مع مرور الزمن وتمحور التعليم فيها حول العلوم الدينية واللغوية، بالإضافة إلى الزهد والتصوف. وقد تميزت هذه الفترة بمجموعة من الخصائص نلخصها في:

-قلة الدواعي والأسباب الدافعة إلى قول الشعر :

قَلَّتْ في هذا العصر دواعي الشعر عما كانت عليه في العصور السابقة على الرغم مما سبق ذكره؛ ذلك لأن معظم ما قام به سلاطين المماليك ووزراؤهم لم يكن حبا في اللغة العربية وآدابها، وإنّما كان نزولا عند مقتضيات السّياسة؛ وفي مقدّمتها استرضاء الشعب العربي المسلم الذي يحكمونه، واستمالة رجال الدين للاستعانة بسطوتهم الواسعة التي كانوا يتمتعون بها لدى العامة في تثبيت أركان ملكهم، خصوصا وأن عامة الناس ومعظم السلاطين على وعي تام بحقيقة كونهم زنوج؛ مماليك، ورقيق جُلبوا إلى مصر من إفريقيا عن طريق التجارة؛ ونشّئوا تنشئة عسكرية فغلب على طباعهم الميل إلى الخشونة والصلف؛ لا يتقنون العربية، ويصعب عليهم إدراك معاني الشعر وعناصر الجمال فيه وبالتالي تذوقه فهم أعاجم عن العربية فليسوا إذن على استعداد فطري للإنصات إلى شعرائها والعطف عليهم.

- تنافس بعض السلاطين والأمراء والوزراء في إغراء العلماء والمفكرين والأدباء والشعراء:

إن كون المماليك أعاجم لم يمنعهم من السعي إلى إضفاء الصبغة العربية الإسلامية على مظاهر ملكهم، من خلال سلوك ما ألف ملوك الدولة العباسية سلوكه كتقريب العلماء والشعراء وجلب أكبر عدد منهم

وأشهرهم إلى بلاط السلطنة أو الإمارة لتزيين المجالس السلطانية والأميرية، والتفاخر بما يلقونه من خطب وينشدونه من مدائح، وكل يطمع في تحقيق بغيته؛ فالسلاطين والأمراء من المماليك يرغبون في توظيف الأدباء والشعراء كوسائل إعلام دعائية تنشئ وتنشر وتذيع قصائد المدح والتمجيد والإشادة بمآثرهم الحاضرة ، ومعاركهم الجهادية في حماية الدين والأوطان، بشجاعة وحنكة أفتقدها الناس لدى ملوكهم وقاداتهم العرب وتغطي على وضاعة أصولهم، وقلة شأنهم في ماضيهم، وترفع صيتهم ، وتسمو بمقاماتهم على مقامات نظرائهم؛ وخصومهم؛ ومنافسيهم، وتقوي إعجاب الرعية بهم وتمتن ولاءها لهم. ورجال العلم والأدب يسعون من جهتهم إلى تحسين أوضاعهم المادية والمعيشية، وتعزيز مراكزهم الاجتماعية بما يحصلونه وينالونه من عطايا وهبات ومكافآت .

- **وفرة المساجد ،والمدارس والزوايا والكتاتيب:**

رغم أن المماليك كانوا عجما من أصول زنجية إفريقية إلّا أنَّ صِدقَ عقيدتهم الدينية جعلتهم يَحْتَفُونَ باللغةِ العربيةِ، ويُولُونها ما تستحق من عناية ورعاية واهتمام باعتبارها لُغَةَ القرآنِ الكريم، فبنوا عددا كبيرا من المدارس في جميع أنحاء البلاد، وفتحوا –أبوابها– أمام جميع الراغبين في الاستفادة، يأتون إليها ليستمعوا إلى ما يلقى في حلقاتها .

–نظام التعليم:

كانت الصبغة الغالبة على التعليم و طرقه في مدارس هذا العصر هي الصبغة الفوضوية؛ فالدراسة بلا ضوابط؛ و في غياب القوانين التنظيمة، والطرائق الواضحة، مع انعدام المناهج والأهداف والغايات المحددة ، والجمع بين علوم شتى، في مقدمتها تحفيظ القرآن، والحديث، والعلوم الدينية، من فقه، وتفسير، وسير، وعلوم اللغة وآدابها، والرياضيات، والفلك، والتاريخ والجغرافيا، والحساب والجبر والهندسة، والطب والموسيقى.

ازدهار حركة الجمع والتأليف:

أحسّ العلماء والأدباء في مصر، والشام ؛ والحجاز، والمغرب العربي بفداحة الخراب الفظيع الذي ألحقه الغزو المغولي التتاري ، والنهب الصليبي لذخائر العلوم والآداب ونفائسها ،ولمصادر الثقافة العربية الإسلامية ؛ وما نجم عن ذلك من فراغ علمي رهيب ؛ وأضرار لا تجبر؛ كما أحسوا بثقل المسؤولية

الأخلاقية، والعلمية والدينية والتاريخية الملقاة على عاتقهم في جمع ما بقي عالقا بالصدور؛ من آثار استعصت على عوامل الفناء، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه وحفظه من الضياع، خاصة بعد أن وفر لهم المماليك الظروف المساعدة من استقرار؛ وأمن ودعة ، فبادروا إلى ذلك وأقبلوا عليه بالتدريس والخطابة ، وبالكتابة والتدوين : جمعا ، وتصنيفا ، وشرحا وتعليقا ،وغيرها من ألوان النشاط، فانعكس ذلك كله في كثرة التآليف التي تميز بها هذا العصر، الذي عرف بعصر الموسوعات.

ومن أصحاب الموسوعات المشهورة التي ظهرت في هذه الحقبة ابن منظور(ت 711هـ /1311م) صاحب كتاب معجم "لسان العرب" والنويري (ت 733هـ/ 1332م) صاحب كتاب "نهاية الأرب في فنون الأدب ؛ وزكريا محمد القزويني(ت 682هـ/1283م) صاحب كتاب "عجائب المخلوقات" وغيرهم كثير.

المحاضرة الثانية: خصائص الأدب في عصر الضعف

تميز الأدب في عصر الضعف بمجموعة من الخصائص والسمات يمكن تلخيصها فيما يلي:

ضعف الشعر : تميزت المرحلة الأولي من عصر الضعف بكثرة الشعراء لكثرة دواعي الشعر وبواعثه ، ولكن مع ضعف مستواه ، بالقياس إلى مستوى الأدب في العصور السابقة ، سواء أكان هذا الضعف في المضامين أوفي النواحي الفنية الجمالية، والمعاني، والصو، وفي القضايا المطروحة ومناهج المعالجة وأغراض الشعر المألوفة الموروثة من فخ، ومدح، وغزل، وهجاء ووصف، وشكوى وما إليها وجريا على نفس السنن والقواعد المتعارف عليها من قبل دون تجديد.، فغلبة التقليد والاجترار لمواضيع مطروقة موروثة بادية هذا قبل أن ينحط مستواه إلى الحضيض بعد أن كسد سوقه ويئس المتكسبون منه والمرتزقون به، فانصرفوا إلى طلب الرزق من طرق الحرف والمهن الأخرى وانشغلوا عنه بهموم الحياة، ومطالبها المتزايدة ،ولم يعد لهم من الوقت ما يكفيهم لنظمه أو صناعته و تنقيحه .

في الحقبة الثانية (1617م–1798م) حين أصبح الفخر يدور حول ما اقتناه الشاعر أو الممدوح من بيوت أو خدم وحشم أو دواب، وصار الهجاء ينصب على البعوض والفْئران والصراصير وقس على هذا في مختلف الفنون.

ويمكن تصنيف شعر هذه المرحلة ضمن تيارين بارزين كما درج على ذلك دارسو الأدب ومؤرخوه ،وهما :تيار الزهد، ويقابله تيار اللهو والمجون؛ مع ضرورة التنبيه إلى وجود ثروة شعرية تكفي لتشكل تيارا ثالثا فيه من هذا ومن ذاك، يمكن أن نسميه تيار الهزل والسخرية والضحك، وتنحصر أسباب ظهور التيارات الثلاثة في سوء الوضع العام الذي طبع المرحلة وكان من أبرزها الصراع والتنافس على السلطة فكثرت الدسائس والانقلابات السياسية وما صحب ذلك من اضطرابات أمنية أفقدت المجتمع بأسره توازنه، ودفعت به في دوامة من القلق الشامل، تدهور معه الوضع الاقتصادي، فانتشر الفقر والفاقة والأوبئة وما أفرزته من آفات؛ وأدت إليه من كساد في سوق الفكر والأدب والشعر بث اليأس وخيبة في النفوس، وثبط الهمم.

الفترة الثانية : عصر الانحطاط.

وبعد أن تمكن الأتراك العثمانيون من صد آخر حملة صليبية تقودها أروبا ضد المسلمين بين سنتي 1443 م إلى 1444 م تفرغوا لتقوية جيوشهم وتدريبها وتسليحها ثم اتجهوا بها جنوبا وغربا نحو الأقاليم والإمارات والدويلات العربية والاسلامية وفي سنة " 923هـ الموافق1517م " وبعد سيطرة الأتراك العثمانيين على الشام ومصر ومعظم الشريط الساحلي للمغرب العربي وباقي الأقاليم الأخرى التي أخضعوها لسلطانهم شرقا وغربا وشرعوا في ابتزاز أموال الناس :الفلاحين والتجار؛ وأصحاب الحرف على وجه خاص، والرعية بشكل عام وبالغوا في فرض الضرائب والإتاوات الجائرة، وزرعوا في النفوس الخوف والرعب، فانتشر الإفلاس والكساد، وخيم الفقر والفساد، وعم القلق والجهل والاضطرابات والفتن، وتفككت روابط المجتمع، وانتهجوا سياسة التتريك العام فبدأ انحطاط الأدب حين جفت دواعيه ومنابعه وأدواته، فتسارع تهاويه نحو الحضيض شكلا ومضمونا، وتسلط الخمول على العقول فتصحرت الحياة الفكرية والعلمية والأدبية ، وتلاشت المواهب، وجفت القرائح، ولم يبق من مظاهر الفكر والأدب إلا الهزيل المسف، والمقلد المشوب بالقصور والتكلف والتعقيد.

المحاضرة الثالثة: الشعر التعليمي في عصر الضعف

1- تعريف الشِعر التعليمي

يُعرّف الشِعر التعليمي بأنه عبارة عن نوع من أنواع الفن الأدبي الذي يقوم بمخاطبة العقل ويبتعد عن العاطفة والخيال، وقد عُرف الشعر التعليمي في العصر العباسي الذي ساد فيه الإقبال على العِلم والتعلم، وجاء الشعر التعليمي بهدف تسهيل حفظ العلوم والمعارف المُختلفة، وتعددت المواضيع التي يتناولها

الشعر التعليمي فقد تطرق بعضها إلى التاريخ وبعضها الآخر إلى الحيوانات بل حتى أنه امتد في عصور لاحقة ليشمل الطب والبلاغة والخط وغيرها من المواضيع المتنوعة.

رغم أن الشعر التعليمي تعود بذور نشأته إلى العصر الأموي إلا أنه نشط وكثرت "المتون المنظومة" في عصر المماليك بشكل لم يسبقه؛ ولم يلحقه مثيل، ومن العلوم التي كثر فيها النظم في علوم اللغة المختلفة كالنح ;، والصرف، والبلاغة، باعتبارها لغة القرآن وهي أجدر العلوم وأحقها بالعناية وبالجمع والحفظ في رأي علماء ذلك العصر من جهة، ولتسهيل حفظ مفرداتها وقواعدها وضوابطها واسترجاعها من طرف طلاب العلم عند الحاجة، كما نظمت إلى جانب ذلك الفرائض، والقواعد الفقهية، والمنطق، وقوانين الكيمياء وتحولات المادة (علوم الهيئة)، مع العلم أن خالد بن يزيد بن معاوية الأموي (ت 704 م) أول من نظم ما كان قد عرفه من قوانينها وله " ديوان النجوم، فردوس الحكمة"، والقصائد في الكيمياء، وقصيدة كيميائية، ومنظومة في الكيمياء. إلى جانب متون العديد من العلماء الذين جاؤوا بعده ونظموا معارفهم في متون.

وفي عصر الضعف انحصر النظم في العلوم في مجال الحرف البسيطة وصناعة الحلويات والمأكولات. وتميزت أغلب هذه المتون بالطول لتستوعب العلم المنظوم وتحيط به وتستقصي مكوناته ، ولذلك كثرت الألفيات، أي المتون المنظومة التي يناهز عدد أبياتها أو يساوي أو يفوق الألف بيت، ومن أشهرها ألفية ابن مالك "الخلاصة الألفية " و" الكافية الشافية" وقد اشتهرت هذه المتون وشاعت واحتفى بها شيوخ العلم وطلابه ودارسوه فأنشأت حولها الشروح وشروح الشروح.

يقول محمد بن عبد الله بن مالك الطائي في منظومته النحوية واللغوية(الألفية)، والتي هي عبارة عن متن شعري على وزن الرجز:

كَلامُنَا لَفْظٌ مُفِيدٌ كاسْتَقِمْ..... وَاسْمٌ وَفِعْلٌ ثُمَّ حَرْفٌ الْكَلِمْ

واحِدُهُ كَلِمَةٌ والقَوْلُ عَمْ..... وَكِلْمَةٌ بِهَا كَلاَمٌ قَدْ يُؤَمْ

بالجَرِّ وَالْتَّنْوِينِ وَالنِّدَا وَأَلْ..... وَمُسْنَدٍ لِلاِسْمِ تَمْيِيزٌ حَصَلْ

بتَا فَعَلْتَ وَأَتَتْ وَيَا افْعَلِي ..... وَنُونِ أَقْبِلَنَّ فِعْلٌ يَنْجَلِي

سِوَاهُمَا الْحَرْفُ كَهَلْ وَفي وَلَمْ..... فِعْلٌ مُضَارِعٌ يَلِي لَمْ كَيَشَمْ

وَمَاضِيَ الأَفْعَالِ بِالتَّا مِزْ وَسِمْ...بِالنُّونِ فِعْلَ الأَمْرِ إِنْ أَمْرٌ فُهِمْ
وَالأَمْرُ إِنْ لَمْ يَكُ لِلنُّونِ مَحَلْ.....فِيهِ هُوَ اسْمٌ نَحْوُ صَهْ وَحَيَّهَلْ

2- خصائص الشعر التعليمي: يتميز الشعر التعليمي بمجموعة من الخصائص تتلخص في:

- **التركيز على الخِطاب العقلي والبعد عن الانفعال الشعوري:** فقد ركز الشِعر التعليمي على الابتعاد عن الانفعال الشعوري والميل إلى التفكير والتأمُل، وقد نتج هذا الأمر بسبب المُستوى الراقي الذي وصلت إليه الحياة الفكرية في ذلك العصر، فالشِعر التعليمي يثير القُدرات العقلية لقارئه ويفعل قوانين التعليل الموجودة عنده ويدفع به بعيداً عن الأحاسيس والعواطف فهو ذو طابع عقلي بحت. فالشعر التعليمي يتطلب مهارة عقلية، وشحذا للذهن، واستكشافا لدقائق المعاني، ونظمها في الأبيات الشعرية، ليقرأها الطلاب ويستظهروها.

-**كثافة عِباراته:** الشعر التعليمي لا يحتاج لأن يكون ذو عبارات طويلة ومُفصلة، وذلك لكي يَسهُل حفظها من قِبل المُتعلمين، لذلك فقد قام شُعراء الشِعر التعليمي بنظم قصائدهم دون زيادة وحشو في الكلام لكي تُستسهل من قبل الطلاب.

- **الشكل الشعري:** جاءت المنظومات التعليمية أو الشعر التعليمي في أشكال شعرية محدودة، أولها القصيدة التي نعرفها بأبحرها المختلفة وقوافيها، وثانيها الأرجوزة في شكلها المعروف من اتحاد القافية في أشطرها كلها، وفي شكل المزدوجات التي تتصف باختلاف القافية بعد كل شطرين، ومثال القافية المتنوعة ما قاله أبّان اللاحقي(الذي يعتبر من الأوائل الذين ألّفوا في الشعر التعليمي) في منظومته الدينية:

هذا كتاب الصوم وهو جامع لكل ما جاءت به الشرائع
من ذلك المنزل في القرآن فضلا على من كان ذا بيان
ومنه ما جاء عن النبي من عهده المتّبع المرضي
صلّى الإله وعليه سلّما كما هدى الله به وعلّما

-**تنوُع موضوعاته:** فقد تناول الشعر التعليمي الكثير من المواضيع المختلفة والمتنوعة، فشملت أشعارهم التاريخ والقِصص والفِقه والنُجوم وغيرها من المواضيع المتنوعة.

3- فوائد الشِعر التعليمي:

يوجد العديد من الفوائد التي يُقدمها الشعر التعليمي، ومن هذه الفوائد ما يلي:

- يقوم الشعر التعليمي بتناوُل الحقائق التي تتعلق بالعلوم المختلفة والصناعات، مما يُمكن المُتعلم من فهم هذه الحقائق وحفظها بسهولة.
- يقوم الشعر التعليمي بذكر الأنساب والسير ويتطرق لوقوع الأحداث المختلفة وإلى زمن حدوثها وتسلسلها.
- يسهل الشعر التعليمي حفظ كثير من العلوم، عن طريق تلخيصها وتحديد مجالها وخصائصها وقواعدها التي تقوم عليها.

لقد تطور الشعر التعليمي وعرف طريقه في عصر الضعف، لأن المحيط العام ساعد في ذلك، ولهذا فقد كانت المنظومات والمتون الشعرية هي غاية الشاعر، الذي ابتعد بشعره عن تصوير حقيقة الذات الإنسانية.

المحاضرة الرابعة: الشعر الديني في عصر الضعف

كان الشعر الديني من أكثر الأنواع الشعرية انتشارا في عصري الضعف والانحطاط، وهذا نظرا للظروف العامة المنتشرة، فقد عم الفقر والشعور بالظلم واليأس، ولهذا وجد الشعراء في الشعر الديني بأنواعه المختلفة طريقا على نفسية الشعراء، الذين راحوا يعبرون عن آلامهم وحسراتهم وشعورهم بالقهر والفقر، ولهذا أنتجوا نماذج شعرية خلدها التاريخ.

والشعر الديني ينقسم إلى شعر زهد، وشعر المدائح النبوية والشعر الصوفي، وهذا تفصيل لكل نوع منها:

1- شعر الزهد

الزهد هو انعدام الرغبة في الشيء، فالشخص الزاهد هو المقل من كل شيء، فلا يرغب في الطعام إلا للعيش، ولا يرغب في أي شيء إلا للضرورة، ويعرف الزهد بأنه مخالفة الرغبات، والقصد من الزهد هو الرضا والقناعة والاكتفاء بأقل الأشياء، والبعد عن الطرف والرفاهية، ويعرف عند أهل العلم، بأنه نهي النفس عن الهوى، وصفاء القلب والتقرب لله عز وجل.

أما عن الزهد في الشعر: فهو فن مستجد نشأ في العصر العباسي، بغرض أن يرجع الناس عن الترف والحياة المبهرجة، حيث كانت مظاهر الغناء والترف بلغت أشدها، مما استدعى إلى الدعوة إلى الرجوع إلى الله والتقرب منه، والابتعاد عن مظاهر الحياة الزائفة والاعتدال في كل شيء، حيث يعتبر الشعر فن الدعوة، لما له من قدرة على ملامسة القلوب وتنوير العقول، فكان يدعوا شعر الزهد إلى البساطة في كل شيء، وقد استمر الزهد حتى عصر الضعف.

- تعريف الزهد في عصر الضعف:

كان إبعاد الناس عن المجون والترف الزائد الذي كان من أبزر سمات العصر، كما أن شهد العصر في أواخره حالة من الاضمحلال والركاكة، وظهر الانحطاط في كافة الجوانب، وكانت بداية للانهيار في كافة النواحي الحياتية، ومن بينهم الشعر، مما استدعى إلى الدعوة لشعر الزهد، والذي يقتصر على أنواع معينة من الكتابة الشعرية، ويقصد بالزهد في عصر الضعف الدعوة الصريحة للشعراء بترك الكتابة عن ملذات الحياة، والاتجاه إلى الكتابة عن المديح النبوي، ووصف الغزوات، وشعر الحكمة والرثاء، حيث اقتصر الشعر حينها على بعض من الموضوعات فقط.

ولكن عانى الشعر حينها من الضعف والركاكة، وكان أحد الأمور التي انهارت مع انهيار الحياة الاجتماعية والسياسية، فكان عصر الضعف بمثابة نكبة على الأدب والشعر. ويرجع الضعف والركاكة والانهيار في نهاية العصر العباسي إلى:

- عدم التشجيع من قبل الحكام للشعر والشعراء.
- اضطراب الحياة الاجتماعية والسياسية.
- سوء الأحوال الاقتصادية.
- الحروب والنزاعات التي جعلت الناس تعزف عن الفنون والأدب.

- الوقوع والغرق في الصنعة اللفظية من قبل الشعراء.

ودعا شعر الزهد في عصر الضعف إلى مجموعة من القيم تحسب له، حيث كان يدعوا إلى:

- التوكل على الله، والتوبة لله عز وجل، فيقول الشاعر عبد الله المبارك:
- رأيت الذنوب تميت القلوب ويتبعها الذل أزمانها
  - وترك الذنوب حياة القلوب فاختر لنفسك عصيانها
- الانصراف عن متع الدنيا، والتوجه إلى الله عز وجل، حيث كان الهدف الأساسي في تيار الزهد في كل العصور.
- القناعة والرضا، والتذكير بالموت والترهيب.

- **خصائص شعر الزهد:**

تميز شعر الزهد بمجموعة من الخصائص:

الصياغة:

عرف شعر الزهد ببساطة اللفظ وسهولة الكلمة، وخلا تماماً من التعقيد والالتواء والتركيب، ومن أشهر شعراء الزهد في العصر العباسي أبو العتاهية، وعرفت الجمل والأبيات في شعر الزهد بالركاكة في الكلمة، والمعاني البسيطة والضعيفة، حتى المقاصد الفلسفية كانت بسيطة.

العقلانية والحكمة:

عرفت الأشعار في تلك الحقبة بتوظيف العقل والحكمة في كافة مجريات الحياة، والدعوة إلى التفكير والتدبر في الله وأحكام الشريعة والدين، والدعوة للأخلاق والابتعاد عن الأمور الدنيوية.

الموسيقى الشعرية:

لم يلتزم شعر الزهد بالموسيقى الشعرية، ولم يتقيد بالأوزان والقوافي، بل كان يخرج عن تقاليد الشعر، من أجل توصيل المعنى، كما ابتكر الشعراء وعلى رأسهم أبي العتاهية أوزان جديدة، وكان هو أول من كسر

القواعد، فقد يمكن التحدث عن أبي العتاهية وشعر الزهد على أنهم شيء واحد، فكان الأب الشرعي لهذا النوع من الأشعار، وهو من أهم شعراء الزهد، ومن سمات أسلوبه الخروج عن القاعدة وكسر القافية.

كثرة استخدام الأسلوب الإنشائي:

كثر استخدام الأسلوب الإنشائي في شعر الزهد، حيث كان المقصد من استخدام تلك الأساليب هو إثارة الانتباه والتشويق، فاستخدم الشعراء أسلوب النداء وأسلوب الاستفهام، وأسلوب التعجب والأمر والنهي.

أسلوب الخطابة الوعظية:

يستخدم أسلوب الخطابة الوعظية من أجل إثارة انتباه المستمع، والابتعاد عن الممل.

أهم شعراء الزهد:

هناك العديد من شعراء الزهد الذين نبغوا في كتابته، فلم يكن الزهد حكراً على العصر العباسي فقد، بل كان يمتد من العصر الجاهلي وازدهر في العصر الإسلامي والأموي والعباسي، ومن أشهر كتاب شعر الزهد:أبو العتاهية والذي يعتبر أحد رواد شعر الزهد في عصر الضعف، والشاعرة رابعة العدوية، والشاعر أبو نواس الحسن بن هانئ المعروف بأبي النواس، كان أحد الشعراء الذين كتبوا عن الحب والغزل، وكان له باع كبير في الشعر الماجن والحياة الدنيوية، ولكن بعد ذلك تغير الأمر، وشعر بالذنب، وكتب عن الزهد والرجوع إلى الله عز وجل، ومن بين أشعاره:

- أراك يزيدك الإثراء شوقاً إلى الدنيا كأنك لا تموت
- تظل على الغنى أبداً حريصاً أن تخاف فوات شيء لا يفوت
- وأغنى منك ذو طمرين راضٍ من الدنيا يبلغه ما يفوت
- 2- **المديح النبوي:**

شعر ديني يركز على سيرة النبي وفضائله، وقد رافق هذا الشّعر مولده وهجرته ودعوته. وهو شعر صادق بعيد عن التكسب، يجمع بين الدلالة الحرفية الحسية والدلالة الصوفية الروحانية.

في كل العصور نجد قوماً اهتموا بنظم القصائد في مدحه، ذاكرين بعض صفاته وأخلاقه، وشيئا من سيرته ومآثره، وهي ما عرفت باسم المدائح النبوية التي تعتبر فناً من فنون الأدب الرفيع، وهو من فنون الشّعر التي أذاعها التصوف، فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية الصادقة، وباب من الأدب الرفيع

لأنّها لا تصدر إلّا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص.

يتميز المديح النبوي بصدق الشاعر ونبل الأحاسيس ورقة الوجدان وحبّ الرسول طمعاً في شفاعته ووساطته يوم الحساب ويعني هذا أن المديح النبوي يشيد بالنبي باعتباره سيّد الكون والمخلوقات، وأنه أفضل البشر خلقه وخلقاً، وهو كذلك كائن نوراني في عصمته، لذلك يستحق.

ظهر المديح النبوي عند بعثة الرسول ولكن كان ذو اختلاف حول نشأة المديح النبوي، يعتقد بعض الباحثين بأنّ إبداعه مع الدعوة النبوية والفتوحات الإسلامية مع حسّان بن ثابت وكعب بن مالك وكعب بن زهير وعبد الله بن رواحة.

جدير بالذكر من الذين ساعدوا المديح النبوى هم شريف رضى وإبن فارض والشعراء المتأخرين وخاصةً الشاعر البوصيري في القرن السابع الهجري والشعراء الأندلسيين.

أكثر المدائح النبوية قيل بعد وفاة الرسول، وما يقال بعد الوفاة يسمى رثاء، ولكنّه في الرسول يسمى مدحاً. ومن المعلوم أن ذكر شمائل الميت يسمى رثاء، لكنّه في الحق النبي يسمّى مدحاً، لأنّه موصول الحياة، وأنّهم يخاطبونه كما يخاطبون الأحياء.

وبعد وفاة النبي رثاه حسّان بعدة قصائد تعبّر عن صدق مشاعره، وخالص محبّته له.

والواقع أن هذه المدائح كانت في ابتداء أمرها تجري على الطرائق الجاهلية، ثمّ أنتهي بها إلى فن أدبي رفيع باسم فن البديعيات، الذي نشّر بين النّاس أنواعا من الثقافة الأدبية. وتجدر الإشارة إلى أن هذا الفنّ لم يقتصر على البيئات الصوفية وحدها وإنّما اهتم به عدد لا بأس به من الشعراء من غير المتصوفة ونخصّ بالذكر شعراء العصر المملوكي الذين فاقت قصائدهم «البديعية» سائر العصور.

ويبدأ الشاعر المادح في هذا النوع من الشّعر الديني بأن يذكر النسيب النبوي ثمّ يذكر أبيات تضمّنت ذكر قبر، يظهر تقصيره في أداء واجباته الدينيّة والدنيويّة وكثرة ذنوبه، وكان طالباً من الله (عزَّ وجل) التوبة والمغفرة، وينتقل بعد ذلك إلى المدح النبوي وإنما رأيناه يكتفي بتكرار المعاني المعروفة لدى شعراء النبويات ثمّ ينشد أبياتا لطلب شفاعته يوم القيمة، فقال يخاطب الرسول معتذراً ويختتم الشاعر هذه المناجاة النبويّة بذكر اسمه كعادته في أعظم مدائحه، بالإضافة إلى التغنّي، ويدعو من خلال هذا الاختتام بالصلاة والسلام على النبي.

ومن المعلوم أنّ من عادة الشعراء المبالغة، وتجاوز قدر الممدوح فوق ما يستحقّه، لكنّ مدح النبي ليس فيه من مبالغة، بل تقصير وعجز؛ وعلى رأيى لن تجد أحدا من الخلق يبلغ بمدحه قدره.

فإنّ المدائح النبوية لا يشبه بالمدح التكسبي أو التملق إلي السلاطين والأمراء والوزراء، وإنّما هذه المدح خاص للنبي لبالصدق والمحبة والعشق الروحاني.

تطور هذا الأسلوب وازدهر عبر العصور عند ما أحسن المسلمون بالخطر والضعف تجاه العدو الغازى فظهرت القصائد الكثيرة في مدح النبي وأنتشر المديح النبوي على نطاق واسع، وكان أفضل الشعراء لهذه الفترة هو محمد بن سعيد البوصيري (695 هـ) الذي برز بقصائده المشهورة في المديح النبوي كالبردة والهمزية ويمتاز شعر البوصيري بالرصانة والجزالة وحسن استعمال البديع في المدائح النبوية. ومما شاع في هذا العهد المدائح النبوية. فنظم البوصيري بردته الشهيرة " الكواكب الدرية في مدح خير البرية" والتي مطلعها:

أمن تذكر جيران بذي ســـــلم مزجت دمعا جرى من مقلة بـــــدم

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة أو أومض البرق في الظلماء من أضم

وكثر في العصر العثماني، الشعراء الذين ينظمون القصائد في مدح النبي وذكر مناقبه الفاضلة وصفاته الحميدة وذكر سيرته النبوية والأمكنة المقدّسة وكانوا يستفتحون القصيدة النبوية بمقدمة غزلية صوفية يتشوّقون فيها إلى رؤية النبى، وزيارة الأمكنة المقدّسة والحرم النبوي الشريف وكانوا يطلبون من النبي الشفاعة يوم القيامة لتنتهِ القصيدة النبوية بالدعاء.

يعد صفي الدين الحلّي بحق في طليعة شعراء هذا العصر أغرم بالبديع فكان أول من نظم القصائد، وتجمع أنواعه وتعرف بالبديعيات. كانت النبويات المملوكية تعبر عن مشكلات الإنسان العربي المسلم في عصر المماليک، وفيه يقف الشاعر النبوي بين يدي الرسول، باكياً شاكياً متوسلاً ضارعاً، نادماً تائباً، فيعترف باقتراف الذنوب، بالخطيئة الفردية والخطيئة الجمعية، طامعاً في طلب الصفح عنه وعن أمته، متوسلاً به في تحقيق الإخلاص الفردي أو الجمعي أو هما معا، وفي النهاية يختتم الشاعر النبوي هذا العنصر الثالث والأخير بطلب الصلاة الإلهية الدائمة على النبي ويكون ذلک الدعاء إيذاناً بانتهاء النبوية كلّها.

المديح الديني هو تعبير فنّى عن أسلوب الجماعة الإسلامية في العيش إبان العصر المملوكي، ويصبح النبي رمزاً للأمل الشعبي في الخلاص والتحرّر، بغية إعادة التوازن للذّات المقهورة، الفردية والجمعية. .

2- الشعر الصوفي:

-مفهوم التصوُّف:

من يتأمل الاشتقاقات اللغوية لكلمة التصوف، فإنه سيجد أن الكلمة تدل على عدة معانٍ كالدلالة على الصفاء والصفو؛ لأن همَّ المتصوّف هو تزكية النفس وتطهيرها وتصفيتها من أدران الجسد وشوائب المادة والحِس، وقد تُشير الكلمة إلى أهل الصفة الذين كانوا يسكنون صفة المسجد النبوي، ويعيشون على الكفاف والتقشف وشظف العيش، ويزهدون في الحياةِ الدنيا. وهناك من يربط التصوّف بلباس الصوف؛ لأن المتصوفة كانوا يلبسون ثيابًا مصنوعة من الصوف الخشن، في حين ذهب (البيروني) إلى أن التصوّف مُشتق من كلمة (صوفيا) اليونانية، والتي هي بمعنى الحكمة. وعلى الرغم من تعدد معاني كلمة التصوف، فإن الدلالة الأقرب إلى المنطق والصواب هي اشتقاقها من الصوف الذي يشكِّل علامة تميز العارف وتفرُّد الزاهد عن باقي الناس داخل المجتمع العربي الإسلامي، وقد يكون هذا تأثرًا بالرهبان النصارى أو تأثرًا بأحبار اليهود.

ويقصد بالتصوف في الاصطلاح تلك التجربة الروحانية الوجدانية التي يعيشها السالك المسافر إلى ملكوت الحضرة الإلهية والذات الربانية من أجل اللقاء بها وصالًا وعشقًا، ويمكن تعريفه كذلك بأنه تحلية وتخلية وتجلٍّ، ويمكن القول أيضًا بأن التصوف هو محبة الله والفناء فيه والاتحاد به كشفًا وتجليًّا من أجل الانتشاء بالأنوار الربانية والتمتع بالحضرة القدسية.

تقول رابعة العدوية:

أحبُّكَ حُبَّينِ حُبَّ الهَوَى وحُـبًّـا لأنـكَ أهْلٌ لِـذَاكَ

فَأمَّا الذِي هُوَ حُبّ الهَوى فشُغْلِي بذكرِكَ عمَّنْ سِوَاكَ

وأمَّـا الـذِي أنْـتَ أهْـلٌ لَـــهُ فكَشْفُكَ لِي الحُجْبَ حتَّى أرَاكَ

-أهمية النزعة الصوفية في الأدب عامةً والشِعر خاصةً:

تعددت أغراض الشِعر العربي وألوانه على مر العصور من مدح، ورثاء، وهجاء، وتشبيب، ووصف... إلخ، وعلى الرغم من ذلك، فلم يلقَ الجانب الديني الروحي في الأدب الاهتمام الأمثل إلا في عصر صدر الإسلام؛ حيثُ كان الشِعر قد سخَّر جهوده لخدمة الدعوة الإسلامية الناشئة.

ولعل عدم الاهتمام اللائق بالجانب الروحي والإسلامي والصوفي في الشِعر قديمًا وحديثًا، كان نتيجة عوامل عدّة منها:

- قِلّة الشعراء المهتمون بالجانب الروحي في الشِعر؛ وذلك راجع إلى الطبيعة البشرية التي كثيرًا ما تنشغل بأمور الدنيا.
- ترسُّخ في كثير من الأذهان فكرة أن الإسلام يحط من قدر الشعراء والشِعر؛ لذا انفرد بالساحة الشعرية –في أغلب الأحيان– نفرٌ من الشعراء الذين جاءت أغراضهم الشعرية مُعبرة عن انشغالاتهم بالدنيا ومفاتنها ولهوها، بل ومجونها، ونبت الشِعر الديني الروحي بعيدًا على استحياء؛ مما نتج عنه الإغفال عن دراسة الأدب الروحي والوجداني، وتُركّت الساحة للأدب الدنيوي.
- كانت قصور الخلفاء والأمراء والملوك هي المنابر التي يتم من خلالها شهرة الشاعر وذيوع صيته؛ لأنها كانت بمثابة المراكز الثقافية والإعلامية. أما الشِعر الروحي والصوفي فقد نبت بعيدًا عن أحضان القصور؛ لعزوف أربابه عن الدنيا، وتعففهم عن الوقوف بأبواب الملوك؛ ولذا لم ينل هذا الشِعر القدر الكافي من الشهرة والذيوع.

-أغراض الشعر الصوفي:

لعلَّ أهم موضوع عبَّر عنه الشعر الصوفي هو الحبُّ الإلهيّ.

يقول الحلاج:

أَحْرُفٌ أَرْبَعٌ بِهَا هَامَ قَلْبِي وَتَلاَشَتْ بِهَا هُمُومِي وَفِكْرِي

أَلِفٌ أَلَّفَ الْخِلاَئِقَ بِالصُّنْعِ الجَمِيلِ فَلاَمٌ عَلَى السَّلامَةِ تَجْرِي

ثُمَّ لاَمٌ زِيَادَةً فِي الْمَعَالِي ثُمَّ هَاءٌ بِهَا أَهِيمُ وَأَدْرِي

والحبُّ الإلهيّ يتنوع بتنوع تجارب المتصوّفة ونظرتهم له؛ فالمحبَّة عند الصوفية لا يجوز النظر إليها على أنها غرض واحد فحسْب، فهي في التصوّف تتسع لتشمل العديد من الموضوعات المتعلقة بها.

-سِمات الشعر الصوفي وخصائصه:

- الحُبُّ الإلهيّ هو الموضوع الأبرز في الشعر الصوفي، فهو عندهم ليس مجرد موضوع شِعري، بل هو منهج حياة، ودين يعتنقونه، ويعيشون له.
- العناية بالحديث عن دخائل النفس وأسرارها، واستخدام أسلوب الاستبطان الذاتي.
- عدم الاحتفال بالجزالة والفخامة والزينة اللفظية.
- الرمزية في التعبير.

-أطوار الشعر الصوفي:

-الطور الأول:

يبدأ من ظهور الإسلام وينتهي في أواسط القرن الثاني للهجرة؛ وكل ما بين أيدينا منه طائفة كبيرة من الحِكَم والمواعظ الدينية والأخلاق تحث على كثير من الفضائل، وتدعو إلى التسليم بأحكام الله ومقاديره، وإلى الزُهد والتقشُّف وكثرة العبادة والورع، وعلى العموم تصوُّر لنا عقيدة هذا العصر من البساطة والحيرة.

-الطور الثاني:

بدأ من أواسط القرن الثاني الهجري إلى القرن الرابع. وهنا يبدو ظهور آثار التلقيح بين الجنس العربيّ والأجناس الأخرى، وفيه يظهر اتساع أفق التفكير اللاهوتي، وتبدأ العقائد تستقر في النفوس على إثر نمو علم الكلام. وفيه يظهر عنصر جديد من الفلسفة.

والأدب الصوفي في طوريه الأول والثاني أغلبه نثر، وإن ظهر الشعر قليلًا في طوره الثاني. وفي الطور الثاني هذا يبدأ تكون الاصطلاحات الصوفية والشطحات.

-الطور الثالث:

يستمر حتى نهاية القرن السابع وأواسط القرن الثامن، وهو العصر الذهبي في الأدب الصوفي، غنيّ في شعره، غنيّ في فلسفته، شِعره من أغنى ضروب الشعر وأرقاها، وهو سلس واضح وإن غمض أحيانًا.

هذا، وقد تطور الأدب الصوفي نثرًا وشعرًا، وبلغ الشعر الصوفي ذروته مع ابن العربي وابن الفارض في الشعر العربي، وجلال الدين الرومي في الشعر الفارسي.
ولم يظهر الشعر الصوفي إلا بعد شعر الزهد والوعظ الذي اشتهر فيه كثيرًا أبو العتاهية، وقد ظهر الشعر الصوفي كذلك بعد شعر المديح النبوي وانتشار التنسُّك والورع والتقوى بين صفوف العلماء والأدباء والفقهاء والمحدثين كـ إبراهيم بن أدهم، وسفيان الثوري، وداود الطائي، ورابعة العدوية، ويعني هذا أن الشعر الصوفي ظهر في البداية عند كبار الزهاد والنساك، ثم أخذت معالمه تتضح في النصف الأول من القرن الثالث الهجري. فـ **ذو النون** (ت245هـ) واضع أسس التصوف، ورأس الفرقة لأن الكل أخذ عنه وانتسب إليه، وهو أول من فسر إشارات الصوفية وتكلم في هذا الطريق.

يقول ابن الفارض:

قـلبى يُحَدّثنى بأَنّكَ مُتْلِفِى روحى فِداكَ عرَفْتَ أمَ لـم تَـعْرِفِ

لم أَقْضِ حَقّ هَواكَ إن كُنتُ الذى لم أقضِ فيِه أسىً ومِثليَ مَنْ يَفي

ما لى سِوَى روحى وباذِلُ نـفسِهِ فـى حُبّ مَن يَـهْواهُ ليسَ بِمُسرِف

يمثّل الشعر الديني وعلى رأسه الشعر الصوفي النوع البارز لعصر الضعف، فأرقى النماذج الشّعرية ظهرت فيه وتطورت، حتى أصبح السّمة الأساسية لهذا العصر.

المحاضرة الخامسة: النثر العلمي في عصر الضعف

- النثر الفني في العصر الجاهلي:

يؤكد الدكتور زكي مبارك أنه قد كان للعرب في الجاهلية نثر فني له خصائصه وقيمته الأدبية، وأن الجاهليين لابد وأن يكونوا قد بلغوا في ذلك المضمار شأوا بعيدا لا يقل عمّا وصل إليه الفرس واليونان في ذلك الوقت، بل إنهم في إنتاجهم الأدبي في النثر لم يكونوا متأثرين تأثراً كبيرا بدولة أخرى مجاورة أو غير مجاورة، وإنما كانت لهم في كثير من الأحيان أصالتهم وذاتيتهم واستقلالهم الأدبي الذي تقتضيه بيئتهم المستقلة، وحياتهم التي كانت أقرب إلى الانعزال. وإذا كانت الظروف المختلفة لم تساعد على بقاء هذا التراث من النثر الجاهلي، فليس معنى ذلك أن نهدره ونحكم بعدم وجوده، بل كان موجودا ما يسمى بسجع الكهان والوصايا، والخطب، والأمثال والحكم.

-النثر في العصر الإسلامي:

النثر الفني في عهد النبوة، لم يكد يختلف اختلافا جوهريا عن النثر الجاهلي. فقد دخل النثر العربي في طور جديد بظهور الإسلام، بعد أن تعرضت الحياة الأدبية لانقلاب شامل وتطور بعيد المدى. ولم يكن ثمة بد من أن يتأثر الأدب بالحياة الجديدة وأن يكون صدى لأحداثها واتجاهاتها. وكانت مظاهر التطور في النثر أوضح منها في الشعر، لأن الشعر فن تقليدي يترسم فيه الشاعر خطا سابقيه، ويلتزم أصولا محددة، ولذلك يكون أبطأ من النثر استجابة لدواعي التطور.
أما أغراض النثر ومعانيه، فإنها بلا شك قد تغيرت تغيرا محسوسا بظهور الإسلام، و تلوّن النثر في هذا العهد بجميع ألوان الحياة الجديدة فكان خطابة، وكتابة، ورسائل وعهودا، وقصصا، ومناظرات، وتوقيعات، وكان كل حال أدبا مطبوعا. وامتاز النثر في هذا العهد بالإيجاز على سنة الطبيعة العربية الأصيلة.

-النثر في العصر الأموي:

كانت الكتابة ضرورة إدارية ملحة لا غنى عنها في إدارة شؤون الدولة والمجتمع، في المكاتبات والدواوين المختلفة. كما كانت ضرورة اجتماعية لا غنى عنها في المعاملات. وكانت كذلك ضرورة علمية لا غنى عنها في الحركة العلمية التي ازدهرت في العصر الأموي وتعاظمت في أواخره. ونتيجة لذلك كله توسع انتشار الخط واستعمال الكتابة، إبان ذلك العصر، توسعا عظيما، نظراً لإقبال الناس على طلبه.

فالكتابة نمت في العصر الأموي نموا واسعا، فقد عرف العرب فكرة الكتاب، وقد ألفوا كتبا كثيرة.

ولعلّ من أهم الأسباب التي هيأت لرقي الكتابة الفنية في هذا العصر تعريب الدواوين في البلاد المختلفة، وتعقد الحياة السياسية، وكثرة الأحزاب والمذاهب.

وقد تجلت بواكير الكتابة في أواخر العصر الأموي بفضل موهبة عبد الحميد بن يحيى الكاتب، ولقد أجمع النقاد والمؤرخون في القديم والحديث على أن عبد الحميد إمام طور جديد في الكتابة العربية، وأنه هو الذي وضع الأساس لهذا المنهج الكتابي الذي اقتفاه الكُتّاب من بعده، إذن لقد تواترت آراء المؤرخين والأدباء منذ القرن الثالث الهجري على أن الرجل ذو مكانة ملحوظة في تاريخ النثر العربي، وأنه ذو أثر عميق في تطور الكتابة الفنية، وأنه قد سن طريقة جديدة سار على نهجها من جاء بعده من الكتاب.

-النثر في العصر العباسي:

زخر العصر العباسي بالأحداث التاريخية، والتقلبات السياسية، كما زخر بالتطورات الاجتماعية التي نقلت العرب من حال إلى حال، وقد كان لكل هذا، فضلا عن نضج العقول بالثقافة، أثر واضح في تطوير الأدب بعامة، والكتابة بصفة خاصة. لقد تقدمت الكتابة الفنية في هذا العصر تقدما محسوسا؛ وسارت شوطا بعيدا في سبيل القوة والعمق والاتساع.

وأصبح النثر العربي في العصر العباسي متعدد الفروع، فهناك النثر العلمي والنثر الفلسفي والنثر التاريخي، والنثر الأدبي الخالص، وكان في بعض صوره امتدادا للقديم؛ وكان في بعضها الآخر مبتكرا لا عهد للعرب به.

وكان تشجيع الخلفاء والوزراء والرؤساء للأدب وللكتاب باعثا على النهوض بالكتابة، داعيا إلى ارتفاع شأنها، وسمو منزلتها، ثم كان التنافس القوي بين الأدباء وتسابقهم إلى خدمة الخلفاء والرؤساء حافزا على تجويدها والتأنق في أساليبها.

إن الكتابة كانت جواز عبور إلى الوزارة وبعض الوظائف المرموقة في مرافق الدولة لذلك كان على الراغبين في الوصول إلى هذه المناصب العليا إتقان صناعة الكتابة حتى يحققوا أهدافهم التي كانوا يطمحون إليها.

والأغراض التى عبر عنها النثر الفني في هذا العصر قد اختلفت، وبعد أن كان النثر الأموي خطابته وكتابته منصرفا بوجه عام إلى أغراض سياسية وحزبية، ولم يتجه إلى الأغراض الأخرى إلا في صورة ضئيلة، فانه في العصر العباسي قد اتجه إلى كثير من الأغراض والموضوعات الشخصية والاجتماعية

والانسانية؛ كالمدح والهجاء والرثاء والاعتذار والتهنئة والتعزية والاستعطاف، والوصف والنسيب والفكاهة والنصح.

ونستطيع القول بأن النثر خطا خطوة واسعة؛ فهو لم يتطور من حيث موضوعاته وأغراضه فقط؛ بل إن معانيه قد اتسعت وأفكاره قد عمقت، وأخيلته قد شحذت؛ لأن مشاهد الحياة ومقوماتها العامة قد تغيرت.

-مظاهر نهضة النثر في العصر العباسي:

1. تنوع فنونه وأغراضه: فقد تناول كل مجالات الحياة واستخدمته الدولة في الشؤون السياسية والاجتماعية والثقافية.

2. وصول الكتاب إلى المناصب الوزارية.

3. أنه أصبح وعاء لثقافات جديدة، كانت نتيجة لامتزاج الفكر العربي بأفكار الأمم الأخرى.

4. رقي الأفكار وعمق المعاني.

5. التفنن في أساليبه وظهور مدارس متنوعة.

-أسباب نهضة النثر في العصر العباسي:

-استقرار الأمور في الدولة واتساع العمران، وما يتبع ذلك من رخاء.

-النضج العقلي وظهور آثار التقدم الفكري في الدولة.

-ظهور أجيال جديدة من المثقفين من أبناء الأمم المستعربة الذين جمعوا إلى الثقافة العربية الأصيلة فنونا جديدة من ثقافات آبائهم الفرس، الهنود و اليونان.

-تشجيع الخلفاء والأمراء للكتاب وإغداق الأموال عليهم.

-وصول الكتاب إلى المناصب الكبيرة جعل الكتابة مطمح كل راغب في الجاه والسلطان.

-التنافس بين الكتاب في سبيل الإجادة الفنية.

-كثرة المذاهب الكلامية وحاجة كل مذهب إلى التأييد وشرح مبادئه.

6انتشار النثر العلمي و النثر العلمي المتأدب

عرف عصر الضعف انتشارا و ازدهارا كبيرا للكتابة النثرية خاصة أنها لا تتضمن قيودا عروضية تُصعّب مهمة الكاتب، كما أن الكتاب مالوا إلى التأليف في أكناف السلاطين في ظل كثرة المدارس غير أن كتاباتهم قل فيها الاستنباط لتصلب الأذهان فجاءت في معظمها جمعا و شرحا و تحشية كما غلب عليها الزخرف اللفظي والاعتناء بالأسلوب، ولعلّ النّثر العلمي من أهم ما كتب فيه فشمل مختلف العلوم من فلك وجغرافيا وأدب وتاريخ وعلوم الدين.

-تعريف النثر العلمي:

النثر العلمي أداة تبليغ المعارف العلمية والحقائق الكونية الثابتة يعتمد على الدقة والوضوح ويستعين بالأرقام والإحصاء والمصطلحات تعرض بواسطته المعلومات وفق ترتيب منطقي متدرج في أساليب تخلو من الخيال والمجاز.

وتختلف مستويات النثر العلمي من حيث درجة الدقة واعتماد المصطلحات والأرقام بحسب اختلاف فروع العلم فلغة العلوم الإنسانية أقل لجوءا إلى المصطلحات والأرقام ومن ثمّ فهي أقل دقة من لغة العلوم البحتة كالفيزياء والكيمياء.

و قد أكثر العلماء في الكتابة في هذا الفن مثل : ابن خلدون ، النويري ، ابن بطوطة ، القلقشندي

خصائصه:

لهذا الفن النثري عدة خصائص من أهمها:

-الموضوعية و الحياد، الخلو من العاطفة و الخيال.الاستعانة بالأرقام و المصطلحات العلمية.

-المنهجية و التدرج في عرض الأفكار (الإجمال ثم التفصيل)

-الاعتماد على الدليل و الشواهد و الأمثلة، ضعف اللغة و ركاكتها.

-ضعف القيمة العلمية بسبب الاعتماد على جمع المعلومات دون التحقق منها و تمحيصها.

إضافة إلى توفره على المحسنات البديعية، فكان المذهب اللفظي من أهم خصائص النثر العلمي في عصر الضعف.

-المصنفات العلمية في عصر الضعف:

وفي عصر المماليك نشط النثر العلمي وكثرت المصنفات في شتى العلوم مثل اللغة والفقه والتاريخ والتصوف والطب وتراجم الأعلام. فاشتهر في الطب وتاريخه أبو بكر بن البيطار ونبغ في علم الاجتماع ابن خلدون وفي التاريخ المقريزي وفي التفسير جلال الدين السيوطي.

وعرف هذا العصر بعصر الموسوعات العلمية فألف النويري كتاب نهاية الأرب والقلقشندي كتاب صبح الأعشى وابن منظور معجم لسان العرب.

-حركة التأليف في عصر المماليك:

لقد نبغ في كل علمٍ أعلام، وفي كل فنٍ أفذاذ، ما تزال مؤلفاتهم مِلء السمع والبصر

في ميدان العلوم الدينية كثرت المؤلفات في علوم القرآن، والحديث، والتفسير، والفقه، والأصول، وغيرها، إذ يأتي في مقدمة هؤلاء الأعلام المصلح الإمام أحمد بن تيمية، وله مؤلفات تَربو على الثلاثمائة مؤلف منها: فتاواه المشهورة، والجمع بين العقل والنقل. كذلك من أعلام هذه الساحة تلميذ الإمام ابن قيم الجوزية، ومن مؤلفاته: التبيان في أقسام القرآن ومرآة الزمان. كذلك شمس الدين الذهبي، وله (تذكرة الحفاظ) و(الطب النبوي). ومن أعلام العلوم الدينية أيضا جلال الدين السيوطي، وهو صاحب مؤلفات كثيرة، منها الإتقان في علوم القرآن ولباب النقول في أسباب النزول. كذلك من أعلام هذه الساحة القسطلاني، وله (شرح البخاري) و(المذاهب الدينية في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم).

-وفي ميدان اللغة وعلومها: ظهرت مؤلفات وموسوعات كثيرة، من أبرز هذه المؤلفات والموسوعات (لسان العرب) لابن منظور، ويقع هذا المؤلف الضخم في عشرين مجلدًا، وهو موسوعة في اللغة، والتفسير، والحديث، والأدب. كذلك من أشهر الكتب الموسوعية في ميدان اللغة وعلومها في عصر المماليك، (القاموس المحيط) للفيروز آبادي. ومن المؤلفات الضخمة في ساحة اللغة وعلومها المزهر في

اللغة للسيوطي، و(المزهر) جزءان. ومن أشهر كتب النحو والصرف: (ألفية ابن مالك) ولابن مالك إلى جانب الألفية (التسهيل) و(الكافية الشافية). كذلك من المؤلفات الرائعة في ميدان النحو والصرف في العصر المملوكي (مغني اللبيب) و(قطر الندى) و(شذور الذهب) لابن هشام. أما في ميدان البلاغة: فمن أشهر المؤلفات في علوم البلاغة يأتي (تلخيص المفتاح للخطيب القزويني)، و(الإيضاح) للمؤلف نفسه. ويأتي كذلك كتاب (حسن التوسل في صناعة الترسل) لشهاب الدين الحلبي. و(عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح) للبهاء السبكي. ثم تأتي البديعيات، ويأتي أشهر هذه البديعيات (بديعية صفي الدين الحلي) وبديعة ابن حجة الحموي

أما في مجال التاريخ فلقد اتسع التأليف في ميدان التاريخ اتساعًا كثيرًا، وخصوصًا في التراجم، يتجلى لنا هذا في: كتاب (وفيات الأعيان) لابن خلكان، ويأتي في هذا ميدان التاريخ أيضا كتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر) لابن خلدون واضع علم الاجتماع. يأتي كذلك (الكامل) لابن الأثير، و(البداية والنهاية) لابن كثير.

أما في ميدان الجغرافيا: فقد كان له نصيبه من المؤلفات أيضًا فهناك كتاب (عجائب المخلوقات) للقزويني، و(تقويم البلدان) لأبي الفداء، ورحلة ابن بطوطة

أما في مجال الأدب فقد كثرت الموسوعات، إذ كان يغلب على التأليف في الأدب الخلط بين الأدب والأخلاق، وبين الأدب والعلوم المختلفة، كالتاريخ، والنبات، ولهذا عُرفت هذه المؤلفات في الأدب بالموسوعات، ومن أشهرها كتاب نهاية (الأرب في فنون الأدب) للنويري و(مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) لابن فضل الله العمري، ويأتي في هذه الساحة (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) للقلقشندي، وكتاب (المستطرف في كل فنٍ مستظرف) للإبشيهي، وكتاب (خزانة الأدب) لابن حجة الحموي، أضف إلى ذلك ما شاع في العصر المملوكي من قصص؛ لشغل الجمهور بما يخفف عنهم أعباء الحياة و أهم هذه القصص، تكملة ألف ليلةٍ وليلة، وسيرة عنترة، وسيف بن ذي يزن، وأبو زيدٍ الهلالي، والظاهر بيبرس، وهي في معظمها تدور حول قَصص البطولة وأخبار المغامرات. ولم يقف مد التأليف ونشاطه عند هذه العلوم، وإنما امتد إلى الكيمياء، والطب، والصناعات، وعلم الحيوان ككتاب (المختار من الأغذية) لابن النفيس، و(حياة الحيوان) للدميري، و(كشف الكروب في معرفة الحروب) لعماد الدين اليوسفي.

خلاصة القول لقد زهت حركة التأليف في عصر المماليك، حتى احتل العثمانيون الشام ومصر، عندئذ تقلص التأليف وتقهقر، وتمكن الذل من النفوس، فخمدت القرائح، واطمأنت الكتب في الخزائن، وضرب الجهل على الأبصار فعمت، وطال عليهم الأمد فغشاها النعاس، وخيم عليها الظلام، فلم تستيقظ إلا بمدافع نابليون بونابرت.

-كتاب المقدمة لابن خلدون:

-طبيعة الكتاب: حرص ابن خلدون على تمييز كتابه عمّا يشبهه من الأجناس الأدبية أو المجالات المعرفية الأخرى؛ فميّزه عن "علم الخطابة" وهو "الأقوال المقنعة النافعة في استمالة الجمهور إلى رأي وصدِّهم عنه"، وغايَرَ بينه وبين "علم السياسة المدنية، فنصُّ المقدمةِ أبعد ما يكون عن الانفعالية، وليس هو كتاب تسلية وغرائب.

اختلافه عن نثر عصره:

تمادى "السَّجعُ" في العصر المملوكي حتى دخل "النثرَ التأليفي". وكان هذا الأسلوب المبالِغ في الشكليات اللغوية كان متوقّعاً، للتعبير عن نتاجٍ يعوزه العمق والإبداع، إذ قلَّما نجد مصنَّفاً يعتمد الاستنباط، ولا يكون تحشية وشرحاً، وذلك بخلاف ابن خلدون السالك طرق البرهان الفكري والمحتفي بالمعنى. فهو كما شهد له غيرُ عالمٍ من علماء عصره منهم ابنُ حجر العسقلاني والمقريزي، كان لَسِناً فصيحاً حسنَ التَّرسُّل وسَطَ النظم. ومع ذلك لم يخرج ابن خلدون خروجاً كلّياً عن أسلوب عصره النثري، فالعنوان الذي جاء الكتاب مقدمةً له كان مسجوعاً: **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**. واستمرّ السجع في مستهلّ الكتاب في تحميداته.. إلى أن قال: "أما بعد فإنَّ فنَّ التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال، وتُشدُّ إليه الركائب والرحال."

وبمجرّد أن بدأ في متن الكتاب تحوَّل عن السجع، لكن بقي الازدواج: "اعلم أنَّ فنّ التاريخ فنٌّ عزيز المذهب جمُّ الفوائد شريف الغاية؛ إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سِيَرهم، والملوك في دولهم وسياستهم". وقد ارتكز أسلوبه على الترادف والإطناب اليسير نسبيّاً:" ولا قيس الغائب بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها العثور ومزلة القدم."

ولكنه ينعتق من النثر المزدوج حين يمعن في قضايا فكرية بُرهانية تتطلّب الاسترسال والتسلسل الجُمَلي.

وابن خلدون يفترض، لطبيعة موضوعه، متلقّياً واعياً عميقَ التفكير قادراً على التمحيص والقبول والرفض، يبدو نثر ابن خلدون ليس من النثر التام الذي لا يحدث أيَّ انفعالٍ شعريّ ولا إحساس جماليّ.

وعلى صعيد التجديد الأسلوبي والمصطلحي استطاع أن يجدّد في الأسلوب، مستخدماً مفردات الفقه بأسلوب جديد نقَلَ فيه المصطلحات الأصولية من عالم المعرفة الدينية إلى عالم المعرفة الاجتماعية.

وبصفة عامة فابنُ خلدون يرتكز على لغة عالية متقدّمة لا بدّ أنها كانت طيّعة له، مستقوية بفكره المنظّم، فهو مع ملكته المؤكَّدة صانعٌ يعيد التنقيح والنظر في مقتضيات الفكرة، كما في مقتضيات اللغة، وَفق الآراء التي ترجِّح عودته إليها بعد كتابتها؛ حتى استوت.فكتاب المقدمة لابن خلدون يعتبر نموذجا للخروج من دائرة النثر في عصر الضعف، فقد كان النثر علميا متأدبا حاول من خلاله ابن خلدون استرجاع مكانة النثر العربي واللغة العربية في عصر طغى فيه الضعف والانحطاط.